ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[1] ومن عهدكم استجابة الدعاء ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾[2] ﴿وَلَمْ أَكُنۢ﴾ فيما مضى ﴿بِدُعَآئِكَ﴾ إياي وهو العهد الأول ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ وعلى ضوئه، ولم أكن بدعائي إياك وهو العهد الثاني ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ فإن دعاء الأشقياء لا يستجاب، وإذ لم أكن شقياً بدعائك إياي لم أكن شقياً بدعائي إياك[3].

هذه سابقتي المشرقة في بعدين قبل المشيب، أفبعد المشيب وأنا أحرى بالاستجابة وأرحم أنت لا تستجيب؟.

ورغم ﴿إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ فلا يهن العزم منك، ومع أنه ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فرحمتك مشتعلة للشيب أكثر مما قبل المشيب، فحالي الضعيفة وماضيَّ من حالي إذ ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ تقتضي رعاية حالي واستقبالي، وكما لم أكن في حال بدعائك رب شقياً فلا تكن بدعائي ربّ إلا حفياً، فقد عودتني الاستجابة في فتوتي وقوتي فما أحوجني في هرمي وكبرتي!

ثم وليست هذه الاستجابة لصالحي شخصياً، بل والحفاظ على مستقبل الرسالة ووراثة الدعوة:

﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾:

ليس لي ولد يرثني رضيّاً، وإني خفت من يليني من ورائي أن يصبحوا أخلافاً متخلفين، فلا يقوموا على تراث النبوة مالاً وحالاً، تضييعاً للمال في غير موضعه، وتحويلاً للحال إلى غير حالٍ.

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) فـ«دعائك» يعني المعنيين على الترتيب في الأدب اللفظي بإضافة المصدر إلى الفاعل كما في «عهدي» ثم إضافته إلى المفعول كما في عهدكم، وكما هو الترتيب المعنوي أن استجابة الدعاء من مخلفات استجابة العبد دعاء ربه وما ألطفه جمعاً لهما لفظياً ومعنوياً.

ورغم أن حالي وماضيَّ واستقبالي تقتضي إجابة دعائي لصالحي وصالح استمرارية الدعوة والحفاظ على بيت النبوة، ولكني ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ كمانع أوّل للإيلاد ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ كمانع ثانٍ للولادة، ولكنك لا يمنعك أيّ مانع ولا يقف دون مشيتك أي رادع، «وكانت» تلمح لكونها عاقراً منذ ماضٍ بعيد وهي الآن شيخة فأصبحت ذات عقرين! فهذه - إذاً - ثلاث!

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[١] ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٢].

يدعو ربه بكل ضراعة آيساً من نفسه، وهناً لعظمه وعقراً لزوجه، راجياً ربه أنه سميع الدعاء وهو خير الوارثين، فهب لي ولياً يرثني خيراً وأنت خير الوارثين، وقد تشير ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ إلى أن مطلوبه يحمل رحمة لدنية رحمانية حيث الأسباب العادية قاصرة لمكان العقر والشيخوخة ورحمة لدنية رحيمية هي النبوة وهما من خوارق العادة في الرحمتين ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ...﴾!

وهنا ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ تصرف ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ﴾ عن وراثة النبوة، أو تعمها لكل وراثة من مال ونبوة[٣] فلو كانت ﴿يَرِثُنِى﴾ مختصة بوراثة النبوة وهي تتطلب في أصلها وفرعها كون الوارث رضياً، لكانت ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ طلباً لتحصيل الحاصل، أو أن الله يورث النبوة لغير المرضي فيدعوه زكريا ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾!.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.
(٣) الدر المنثور ٤: ٢٥٩ وأخرج الفرياني عن ابن عباس قال: كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال: رب هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب قال: يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة.

فلقد كان دعاؤه ذات بعدين ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي . . .﴾ ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ وكما في آل عمران: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً . . .﴾[1] كتصريحه ثانية، ثم وتلميحة في الأنبياء ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

فلا يطلب ويستوهب ولياً غير رضي، ولا رضياً غير ولي، وإنما يطلب ولياً رضياً يرثه وهو الولد من صلبه فميراث النبوة - على مجازها - لا يختص بذرية وارثة، كما وهذا الإرث لا يقتضي كون الوارث رضياً. فقد يدعو زكريا ربه أن يهبه ولداً هو مجمع الوارثين، ولو اختصت بوراثة النبوة أصبحت مجازاً لا محسِّن له ولا دليل، وسقطت «واجعله رضياً» عن الفائدة. فليعن بـ ﴿وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ ميراث المال والأعم بقرينة ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وبـ ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ النبوة المجعولة في وارث المال، وعلى أية حال فإرث المال أصل قاطع في ﴿يَرِثُنِي﴾ ولكي ينضبط ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾!.

فهنا الحديث المختلق على الرسول ﷺ هضماً لفدك البتولة الزهراء عليها السلام، مصلحية الحفاظ على الخلافة البتراء «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة» يردُّ إلى قائله لمخالفته نصاً من كتاب الله ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ . . .﴾ وحيث لا تختص بإرث النبوة، بل لا تورث النبوة حتى تشملها[3]، وإنما هي المستفادة من ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ جعلاً إلهياً ثانياً باصطفاء بعد جعل الولادة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

(٣) فالوراثة في وجه عام تختص بالمال حيث ينتقل بحكم الله إلى الورثة، فأما العلم والتقى، والرسالة وأضرابها من الخصائل المعنوية فلا تورث كما المال، اللهم إلا مجازاً، إن الله يجعل النبوة في ولد النبي فيعبر عنه بالورثة لمشابهتها وراثة المال رغم الفوارق بينهما، ولا مجال في هذه الآية لهذا المجاز، اللهم إلا أن يُعنى من ﴿يَرِثُنِي . . .﴾ [مريم: ٦] كلا الميراثين والقدر الثابت وراثة المال، حيث النبوة مذكورة في ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦].

ولأن عموم الحكم في هذا المختلق معلل بالنبوة «معاشر الأنبياء» فلا تخصيص فيه إلّا تعامياً عن العلة فتغاضياً عن أصل الحكم، فلا يقبل تخصيصاً بالكتاب أن وراثة المال في آل يعقوب تستثنى من عموم الحكم رغم عموم النص ونص العموم في ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾[١] أفعلى عمد يترك كتاب الله في عمومه وخصوصه؟ أو أن الصديقة الزهراء لم تكن من أولاد الرسول ﷺ أم لم تكن مسلمة ترث أباها أمّاهية؟!.

تقول فيما يروى عنها (سلام الله عليها): «أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ وقال ﷻ فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ وقال عزَّ ذكره: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٢] وقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾[٣] وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[٤] وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا! أفخصكم الله بآية أخرج نبيه منها؟! أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟! أولست وأبي من أهل ملة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبي ﷺ؟ ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[٥]؟ أأغلب على إرثي ظلماً وجوراً ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ...﴾[٦].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٥٠.
(٦) ج ٦ بحار الأنوار، يقول صاحب البحار: هذه الخطبة من المشهورات بين الفريقين مع بعض الاختلاف في بعض الألفاظ وينقلها هنا عن كتاب «بلاغات النساء» لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر.

هنا ﴿يَرِثُنِي﴾ يعم الإرثين أو يخص إرث المال. فماذا يعني ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾؟

قد يعني يعقوب بن ماثان أخا عمران بن ماثان أبي مريم، وكانت امرأة زكريا أخت مريم، فلأنها من آل يعقوب فإرثه عنها إرث من آل يعقوب، ولكنه بعيد في عرف القرآن حيث لا يذكر فيه يعقوب إلا ابن إسحاق، إذاً فآل يعقوب هم بنو إسرائيل فالميراث إذاً يعم النبوة والمال.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١] ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٢].

لقد تحققت الاستجابة لتوفُّر شروطها، مسارعة في سابق الخيرات وسابغها والدعاء رغباً ورهباً والخشوع لله وقد جمعها في إجمال ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

وقد تعني ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ إصلاحها عن عقرها لتلد، وإصلاحها لإيلاد صالح ليصلح رضياً، مهما كانت صالحة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ...﴾!.

كما ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لا تلمح لنبوة غير صالحة لمكان الوصف[٣]

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٣) فلا يقاس بـ ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] حيث يقابله غير الرضى، فهو قبل ذلك الجعل ليس من الصالحين فضلاً عن كونه من النبيين، ولكن الصالحين منهم نبي ومنهم غير نبي وزكريا طلب فقط صلاحه في ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] فزاده الله تعالى نبوة ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]!.

فـ «نبياً» يعني رفيعاً فـ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تعني رفيعاً من الصالحين، لا رضياً كسائر الصالحين، فهي استجابة فوق المستدعى! حيث النبي يُصطفى بين الصالحين وهم المرسلون فـ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[١] وقد فضل يحيى في هذه الدعاء على جماعة من الصالحين بمن فيهم رسل غير أنبياء.

و﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ تنفي غلاماً قبله اسمه يحيى، وقد تنفي معه من كانت من قبلُ سِمته كيحيى، فـ ﴿سَمِيًّا﴾ تشمل الاسم والسِّمة، وهكذا كان يحيى ثم من بعده نجد له أسمياء في الاسم، لا في السمة إلا الحسين بن علي عليه السلام.

﴿لَمْ نَجْعَل...﴾ دليل أن الله هو الذي سماه يحيى وقد سمى من قبل بعض عباده بأسمائهم، و﴿سَمِيًّا﴾ لا يخص الاسم إذ ليس بخصوصه كثير الأهمية، وإنما هو مع السمة والميزة الخاصة وكما الله ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[٢] حيث الاسم بمجرده ليس ليخص العبادة والاصطبار لها بالمسمى لأن التسمي بأي الأسماء هين، فالسمي هو المثل في الاسم والسمة وهي أولى وطالما المسيح كان سميه في سمات عدة فهو بعده وتنقصه سمة الشهادة الخاصة وهي للإمام الحسين عليه السلام خاصة، وكما لم يجعل له عليه السلام من قبل سمي في الاسم ولا الشهادة، اللهم إلا يحيى في سمة الشهادة! فهو أسمى الأسمياء ليحيى بعده[٣] وبعده المسيح عليه السلام.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٢٤ عن مجمع البيان عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية وكذلك الحسين عليه السلام لم يكن له من قبل سمي ولم تبك السماء إلّا عليهما أربعين صباحاً، قيل له: وما كان بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء وكان قاتل يحيى ولد زنا وقاتل الحسين ولد زنا وفي إرشاد المفيد روى سفيان بن عيينة عن علي بن يزيد عن علي بن الحسين عليه السلام قال: خرجنا مع الحسين بن علي عليه السلام فما نزل نزلاً ولا رحل منه إلا ذكر يحيى بن زكريا وقتله وقال: ومن هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.

وترى أن الله بشَّره دون وسيط كما تلوح ﴿يَٰزَكَرِيَّآ . . . لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ . . .﴾؟ أم بوسيط الملائكة ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1]؟ وكيف الجمع بينهما! . . أن قول ملائكة الوحي المرسلين إلى الرسل هو قول الله، فلا فرق إذاً بين «قال ربك. . .» و﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أو أنه نداءان، بواسطة الملائكة أولاً، ثم دون وسيط أم بوسيط ملك الوحي الخاص جبريل ثانياً!

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾:

وترى كيف يختار زكريا فيما يدعو ويختار، فلو كان بعيداً عن رحمة الله أو مستحيلاً في قدرة الله لما كان يختاره بكل ضراعة وإصرار؟ وقد عرض في معرض دعائه مانعاً منه فيه وفي زوجه، عقراً وكبراً عتياً، رجاء من الله أن يزيله فيهب له غلاماً رضياً زكياً!

إنه لا يتساءل «كيف يكون» استبعاداً لأصل الولادة أو كيفيتها، وإنما ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ سؤالاً عن زمانها، أقريب أم بعيد، رغم أن ﴿ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ فليكن قريباً لكي تكون لي ولأمه حظوة، ولا فرق عندك بين تعجيله وتأجيله حيث الكبر والعقر قائم ولا سيما في تأجيله.

وإن كان الجواب يلوح باستبعاد لزكريا في الاستجابة ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ . . .﴾ فإنما هو من قصور فيه وفي زوجه، ولا أنه كان يستبعد القدرة الإلهية، أو أنه كان يستبعد الإجابة لأنها خارقة، فأخذته الحيرة لما بشِّر بيحيى فانفلت من لسانه ﴿أَنَّىٰ﴾! إذ لم يتمالكه في عُجاب البشرى واستفسار خصوصياتها، استغراباً من الأسباب، لا من هبة مُسبب الأسباب، كما ولا يذكر إلّا عقراً لامرأته وعتياً لنفسه دون شيء من ربه إلا ما سبق في دعائه ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2] ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾!.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩. (٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

هنا يذكر من قصوراته في موانعه: لامرأته عقراً وشيخوخة، فلو لم تكن عاقراً لم تلد الآن للشيخوخة وهي عاقر شيخة! ولنفسه اشتعال الرأس شيخوخة وانخماد الشهوة عتوة: يبساً وجفافاً لنبعة النطفة، ضعف على ضعف وعقر على عقر فاستعجاب من بشارة الولادة جانبياً، يستوضح بـ ﴿أَنَّىٰ﴾ زمنها وكيفيتها، لا أصلها المستجاب فيما تطلّبه بكل رغبة و:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾:

﴿قَالَ﴾ الله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي بشرت هو واقع دون منعة مانع ولا دفعة دافع ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كيف لا ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أفعيّاً بعدُ عن خلق غلام من أبوين؟.

وترى ﴿خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ تعني خلق زكريا من أبويه الصالحين للإيلاد؟ فهو أهون من خلق يحيى من أبوين عاقرين ولا أولوية في هذا القياس! أم يعني خلق الإنسان الأول دون أبوين، المنتهي خلق زكريا إليه؟ والصحيح الفصيح هو الإفصاح عنه بـ «وقد خلقت آدم ولم يك شيئاً»!.

وقد يلمح ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ إلى خلق المادة الأولية - وهو منها - لا من شيء، وهو أولوية قاطعة بالنسبة لكل خارقة، حيث الخلق من شيء أهون من الخلق لا من شيء وينتهي خلق كل شيء إلى «لا من شيء».

أو أنه ليس قياساً وإنما تسوية في الخلق الهيِّن بين خلقه من صالحين وبين خلق يحيى منهما بموانعه فـ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كما ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ...﴾ وكان هيناً، دونما صعوبة عليّ في خارقة العادة، وهذا هو الواقع في حساب الله إن ليس في خلقه على مختلف المراتب سهولة وأسهل وصعوبة وأصعب، وإنما ذلك في حسابنا وكما يحدثنا بهذا الحساب: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى

﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[١] فالصعب يُعيي ولكن الله لا يعيى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٢]! وقد يعنيهما ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ جمعاً بين برهاني قياس المساوات والأولوية!

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾:

﴿. . . أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[٣].

ترى وكيف يطلب آية وهو مطمئن ببشارة الله وقد طمأنه ثانياً وعد الله؟. . أنه لم يطلب آية لتدله على صدق الوعد! وما هي الصلة بين آية خارقة وبين صدق الوعد؟ ونفس الوحي آية هي أقوى من كل آية! وسائر الآيات ليست إلا لتدل المرسل إليهم إلى آية الوحي المدعى للرسول!.

إنه يطلب آية لتدله على زمن تحقق البشارة حيث تتوق إليه نفسه ولا يعلمه بأصل البشارة. والنص ﴿ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ﴾ آية مرتبطة به لإعلامه الوقت، لا مرتبطة بالله لكي يصدَّق في البشارة، أم ليُتأكد أن البشارة هي من الله وليس من سواه! فإن ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾[٤] برهان لا مرد له على تأكده أنها بشارة ربانية، فرواية هذه القيلة مطروحة[٥] والأنبياء

(١) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٠.
(٥) في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن زكريا لما دعا ربه أن يهب له ذكراً فنادته الملائكة بما نادته أحب أن يعلم أن ذلك الصوت من الله أوحى إليه أن آية ذلك =

معصومون في مثلث زاويته الأولى تلقي الوحي، إذ لا يشتبه عليهم غير الوحي بالوحي!

وفي إنجيل (لوقا ١ : ٢١) «وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته (١٩) وكان الشعب منتظرين زكريا ومعجبين من إبطائه في الهيكل (٢٠) فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل فكان يؤمىء إليهم وبقي صامتاً (٢١)».

وقد أقحم في هذه الآيات ما يمس من كرامة الرسالة فتعرض عرض الحائط ويصدق ما يصدقه القرآن وسائر البرهان.

و«ألا تكلم الناس - ثلاث ليال أو ثلاثة أيام سوياً إلا رمزاً» آية تامة إلهية تدله على ما يروم، فقد يكون ترك الكلام لعقدة في اللسان أم لأي مرض كان، وهو يقول ﴿سَوِيًّا﴾ : حال أنك سليم ولو كان لمرض يمنع لم يقتسم بين ناس وسواهم وهو يقول: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ فقد يكلم الله ويكلم ملائكة الله كما كان، لكنه يعجز في وقته المحدّد أن يكلّم الناس ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ ويؤمر أن يذكر ربه ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[1]!.

= أن يمسك لسانه عن الكلام ثلاثة أيام قال: لما أمسك لسانه ولم يتكلم علم أنه لا يقدر على ذلك إلا الله.

وفي الدر المنثور ٤ : ٢٦١ أخرج إسحاق بن بشير وابن عساكر عن ابن عباس في الآية - إلى قوله: فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٨] خاف أنها لا تلد قال: كذلك قال ربك يا زكريا هو علي هين وقد خلقتك من قبل أن أهب لك يحيى ولم تك شيئاً وكذلك أقدر أن أخلق من الكبير والعاقر وذلك أن إبليس أتاه فقال: يا زكريا دعاؤك كان خفياً فأجبت بصوت رفيع وبشرت بصوت عالٍ ذلك الصوت من الشيطان ليس من جبريل ولا من ربك قال: رب اجعل لي آية حتى أعرف أن هذه البشرى منك. قال: آيتك.. أقول ماذا يدل على أن الإجابة كانت بصوت جلي، وهل هنالك آية معجزة أقوى من الوحي نفسه؟! فالحديثان مطروحان دون ريب لمخالفة القرآن.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤١.